القسم الاول

وصف جزيرة صقلية ومناخها وعمرانها

معقل طبيعي ، صنعته يد الله فى منتصف بحر الابيض المتوسط ، فقسمه الى شطرين شرقي وغربي ، وهيمن على حركة المرور بينهما ؛ وحصن حصين ارتكز بين القسمين البارزين من قارتي اروبا وافريقيا حيث تجابه شبه جزيرة شريك ، فى هيأة تحد ظاهر شبه جزيرة قلورية ، كأن كلا منهما تريد ان تمد ذراعها نحو الاخرى ، فتقوم بينهما جزيرة صقلية ، لتكون فى بعض الاحيان حكما ووسيطا ولتكون في كثير من الاحايين جسراً يعبر عليه اهل الجنوب الى اهل الشمال او ينحدر منه اهل الشمال الي اهل الجنوب ، حسب القوة والاستعداد ، ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض .

شكل مثلث تكاد تتساوى اضلاعه ، اطلق عليه الاقدمون من اجل ذلك اسم « اترينا كريبا » اي المثلث ينفصله بحراً عن قلورية (بايطاليا) مضيق مسينا وهو لا يكاد يجاوز ٣ كيلومترات ، ويفصله عن البلاد التونسية معبر صقلية ، و عرضه ١٢٠ كيلومترا ؛ ويمسح هذا المثلث الصقلي ٢٥٤٦١ كيلومترا مربعا .

فاذا نحن قمنا بحركة طواف حول الجزيرة الصقلية مبتدئين سيرنا من مدينة مسينا ، رأينا منذ النظرة الاولى ان هذه الجزيرة تكاد تكون مقتطعة من ايطاليا حيث تستمر فيها ، فى اتجاه واحد جبال الابينان ، وتكاد تستانف منها فى نفس ذلك الاتجاه نفس تلك الجبال في الشمال الافريقي ، متخذة لنفسها اسم « الاطلس التلي » ولا يسع الرائي يومئذ الا الاقتناع بان افريقيا واروبا كانتا متصلتين فى غابر الازمان قبل عهد التاريخ ، بمعبر قلورية ، صقلية ، شبه جزيرة شريك ؛ ولقد

صدق الله العظيم اذ يقول : « او لم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما . »

ترى اثر خروجك من مسينا ، لاول وهلة ، كتلة هائلة من الصخر والتراب والمعادن المختلفة ، ترتفع الى عنان السماء قمتها ، وينزل الى قاع البحر اصلها ، تلك هي فلقان « الاتنا » او جبل النار ، حسبما تسميه كتب التاريخ العربي ، وانه ليثور في بعض الاحيان ، فيخرج من جوفه فى اصوات كهزيم الرعد القاصف حمما ونيرانا متقدة و دخانا كثيفا ، فلا يبقي حواليه ولا يذر ، يحطم المدائن والقرى والمساكر ويهلك الحرث والنسل ؛ ثم لا تكاد تنقضي ثورته حتى يعود الصقليون الى تجديد ما حطمته النيران وما غمره الحما المسنون ، فكان المعركة هناك خالدة مستمرة بين قوى الطبيعة و بين الانسان ، وكان الله سبحانه وتعالى اراد ان يقيم منهما مثالا دائما للجلد والثبات ، والتغلب على العقبات والصبر على النائبات

فاذا نحن أنحدرنا من مدينة مسينا نحو الجنوب رأينا ساحلا صخريا ، لا نتوء فيه ولا جون ولا خليج ، ويستمر كذلك الى مقربة من مدينة قطانيا ؛ ومن هنالك يتغير هياة الساحل فيغدو رمليا لطيفا ، وترى فيه مصب وادي « ليريتو » ثم يبرز الى البحر في جمال رائع ، راس اكرو تشي .

و من ثم نستمر في انحدارنا صوب الجنوب ، فنجد عروس صقلية مدينة الفن والجمال ، والصيت التاريخي الرائع ، والذكريات المجيدة ، سرقوسة ، واننا لا نذكرها حتى يتراءى لنا شبح بطلها العظيم ارخميدس [١] الاغريقي حيث اجتمع

---

(١) يكاد يكون اكبر علماء البشرية على الاطلاق ولد بسرقوسة وقتل بها (٢١٢ — ٢٨٧ ق.م) من اهم اكتشافاته - الثقل النوعي وان اي جرم دخل فى الماء نقص وزنه بمقدار ما ازاحه من الماء ؛ وقد اكتشف هذه القاعدة الخالدة التي كانت اساسا لعدة اكتشافات اخرى وهو يستحم ؛ فاخذه الوجد بنشوة الاكتشاف

العلم والوطنية والتضحية في ذهن واحد جبار ، فهو الى جانب اكتشافاته العلمية التي تعد فتحا للعنصر البشري تراه يوالي اختراع آلات الدفاع لصد غارة الرومان عن وطنه ، وقد جندله اخيرا سيف الطغيان بيد احد الوحوش الرومانيين .

ومن سرقوسة الى رأس باسيرو ، يتكون من الساحل شكل هلالي ليس فيه ما يستحق الذكر ، وهنالك ينتهي الساحل الشرقي من صقلية ؛ ويبلغ عمق البحر المتوسط حوالي ذلك نحوا من ٣٦٠٠ مترا ، وناخذ طريقنا صاعدين مع الساحل الجنوبي في حركة تدريجية وعلى خط يكاد يكون مستقيما ، وهنالك ينصب وادي سالسو ؛ ثم تقوم مدينة جرجنتي ذات الذكر الطويل فى تاريخنا الاسلامي الصقلي ومن ثم نزيد ارتفاعا نحو الشمال الغربي فنرى سواحل كثيرة المياه ، وافرة المراعي والمروج ، حيث تقوم مدينة مرصالا ذات الرحيق الرقيق ، وبعد ذلك نصعد صوب الشمال حيث نجد مرفأ طرابنة اللطيف الشهير والذي سيمر بنا ذكره كثيرا اثناء البحث التاريخي .

عند راس كستيلا ماري ، ننحني الجزيرة ويبتدىء الساحل الشمالي على خط مستو يمتد من الغرب الى الشرق فنراه ساحلا صخريا جبليا ونلاحظ فيه باديء ذي بدء خليجا تام الاستدارة بهي الشكل ، بديع الاطار هو خليج كستيلا ماري ومن عجب انه لا يحتوي الا على بليدة الكانو الصغيرة وبعض اكواخ لصائدي الاسماك ؛ فان خرجنا منه وجدنا راس دي فالو ومن عليائه نشرف على جون مدينة بالرمه البديعة الطيبة عاصمة صقلية الاسلامية ومركز ادارتها الى يومنا هذا ثم نستمر فى سيرنا مع سواحل صخر وجبال حتى نصل مدينة مسينا ذات البهاء و الجمال والحركة المستمرة والعمران المتواصل ، ومنها ابتدانا سيرنا حول سواحل

وخرج من حمامه عاريا يجرى في طرقات سرقوسة ويصيح بالكلمة المأثورة Eureka, Eureka اى وجدت ، وجدت .

الجزيرة ؛ فلنتجه الان بانظارنا فاحصين دواخل الجزيرة باحثين في جبالها وسهولها وانجادها واغوارها .

الجبال : ان جبل الاتنا ، هو اول ما يستحق الذكر ويستجلب النظر فى صقلية ، فارتفاعه يبلغ ٣٣١٣ مترا ، من ذلك كان اكبر جبال النار في اروبا ولقد ادركه الهرم من قديم العصور فكلل الثلج هامته بمشيب سرمدى ؛ لكن لم يكن ذلك بمانع لثورة ضميره ، والقاء مافي قرارة نفسه امام العالم ؛ اما مساحته فتبلغ نحواً من ١٢٠٠ كيلومتر مربع ويمكن الصعود الى اعلى قمته بكل سهولة حيث الافواه الرهيبة التي يخرج منها على الداوم دخان يكون تارة لطيفا وطوراً كثيفا ؛ وتسمع منها زمجرة نار الله الموقدة وهي تتميز من الغيظ ؛ فكان الصاعد هنالك يشرف من عل عـلى جهنم الحمراء او يرى عينة منها على الاقل .

والاتنا امة مستقلة برأسها لا تكاد تتصل باى سلسلة من الجبال الصقلية الاخرى .

فى شمال الجزيرة تمتد سلسلة من الشرق الى الغرب وهي جبال صخرية جرداء فلما رايت عليها اخضرار نبات او ابتسمت فى وجهك منها زهرة ؛ تتكون طبقتها الخارجية من حجارة كلسية ، و من انواع الرخام الرفيع ؛ وهذه السلسلة وهى سد طبيعي يحمي الجزيرة من غارات الشمال ، ويقيها رياح الشمال الباردة ، يبلغ ارتفاعها نحو الالفى متر ، و هى تعتبر امتداداً من وراء مضيق مسينا لجبال الابنين بايطاليا ، و تعتبر ايضا ، تمهيداً لجبال الاطلس كما اسلفنا ؛ ومنها تتكون بعض جبال فرعيه ، تنحدر من اعلى الجزيرة الى اسفلها ، اهمها الجبال التى ارتفعت فوقها مدينة قصريانة ، و يبلغ ارتفاعها نحو ٩٩٠ متراً ، والجبال التى تنحدر صوب مدينة جرجنتي ، واسمها جبال مادونيا ، وارتفاعها يبلغ ١٥٨٦ مترا ؛ و فى هذه الجبال ثروة ذريعة من الخزف ، والملح المعدنى ، والجص .

و ما بين هذه الجبال ، نجد وهاداً وانجاداً ، وسهولا ضيقة خصبة وغابات قليلة قفرة .

المياه : ان كانت ارض الجزيرة تختلف بين الشمال والجنوب ، فاوديتها وانهارها تختلف مثل ذلك ، فالساحل الشرقي القاحل ، لانكاد تجد به الا اودية ضئيلة غير مستقيمة السير ، ومنها مالا يبلغ عرضه اكثر من متر واحد، يجف اغلبها ابان المصيف ؛ او هي تلوح كمثل اطلال خاوية ؛ كبافي الوشم فى ظاهر اليد؛ هنالك واد واحد يستحق الذكر ، هو وادي القنطرة ، و قد احتفظ باسمه العربي هذا ؛ و يبلغ طوله ١١٦ كيلو متراً ؛ ويروى حوضا مساحته ٤٣٨٩ (كم) مربع .

اما الساحل الجنوبي ؛ فاوديته غنية بمياهها صيفا وشتاء حيث تغذيها سلسلة الجبال الشمالية ؛ واهم هذه الاودية : وادى سالسو ، وطوله ١٤٤ كيلو متراً وحوضه نحو الالفي (كم) مربعا .

وبالجزيرة بعض بحيرات ذات اهمية اكبرها شانا بحيرة لنتيني في مقاطعة سرقوسة ، ومساحتها ١١٩ كيلو متراً مربعا ، وتليها بحيرتا برغوسا وبالتشى

اما الامطار ، فمعدل نزولها في السنة هو ٧٦٠ ملمترا ، والايام المطيرة تبلغ ١١٢ يوما في السنة .

المناخ : خص الله هذه الجزيرة الطيبة ، بحكم موقعها ووضعية الجبال فيها بمناخ جميل وهواء معتدل وجو صاف بحيث انه ليس فى قارة اروبا ما يعادلها من حيث اعتدال الطقس و لطف الهواء .

فصل الشتاء فيها ليس بقارس البرد ، يبتدىء من شهر نوفمبر وينتهي عند شهر مارس مع انقطاع الامطار غالبا فى شهر جانفي ؛ وخلال شهري النمو في افريل ومايو ينزل من السماء ماء غزير هو قوام حياة البلاد اذ يذكي حركة المزروعات والمغروسات .

اما فصل الصيف فهو كذلك لطيف معتدل ما لم تهب رياح السموم ، ترسلها افريقيا تحية غير لطيفة الى هذه الجزيرة ؛ لكن السموم لا تزيد مدتها هنالك عن ثلاثة ايام متوالية ؛ ومن غرائب عاداتها ـ ولماذا لا تكون للرياح عادات كعادات البشر ؟ انها تهب في شهر افريل بصفة خاصة و عند اختلاف الفصول الاربعة بصفة اعم فتأتي معها بجيش عرمرم من الغبار والرمل وتبلغ عندئذ درجة الحرارة في بالرمة وسوادها نحو ٣٧ درجة .

ما معدل الطقس فهو في بالرمة نحو ١٧ درجة ، واقصى ارتفاعه الطبيعي هو ٢٦°١٢ درجة ؛ واقصى نزوله زمن الشتاء هو ١١ درجة ، من اجل ذلك سميت تلك الناحية « بلاد الربيع الابدي » ومن اجل ذلك كانت مستقر الملوك والكبراء والحكام منذ العصور القديمة .

الثروة الطبيعية : اهم النتائج الطبيعية التي اشتهرت بها الجزيرة هو الكبريت le Souffre و وجد غالبا في مقاطعات الجنوب الشرقي ؛ في قالطانا سبتا ، وجرجنتي وقطانيا و كذلك حول مدينة بالرمة ؛ ويلي ذلك في الاهمية الملح المعدني المستخرج من طبقات الارض ، والرخام بمختلف انواعه الرفيعة والعادية ، وحجارة الكلس والجص والقار بنوعيه .

ولقد كانت الجزيرة ايام الحكم الاسلامي وقبل ذلك مكتسية بالغابات الشاسعة الغنية التي تنتج انواعا من الاخشاب الصلبة المستعملة في بناء السفن والمراكب الا ان سوء الادارة بعد ذلك وعدم التبصر بعواقب الامور وترك الحبل يجري على الغارب دون مراقبة وانتباه ؛ قد افقر الجزيرة او كاد من غاباتها فاصبحت لا تحجب الا مقدار جزء من عشرين من ارضها .

اما الثروة الفلاحية فتلك هي نعمة الله الكبرى على الجزيرة وذلك ما جعلها الى جانب مناخها الحسن وموقعها المنيع مطمح انظار الفاتحين منذ قديم العصور

من حسنات المسلمين الخالدة بتلك الجزيرة انهم نقلوا اليها من شمالنا الافريقي ولا يزال يوجد هنالك وافرا ، النخل الباسق الذي ينتج الرطب الجنى واشجار الليمون والنارنج والبرتقال و الموز والزيتون .

و الجزيرة تنتج كميات عظيمة من القمح والشعير والقطاني والكتان وتعتبر بعد البلاد التونسية اكبر منتجي زيت الزيتون .

اما اعنابها فذات شهرة بزت شهرة اعناب اليونان ؛ وتنتج صقلية خمورا وافرة تعتبر احسن خمور اروبا واجودها .

وان كانت الماشية بالجزيرة غير ذات اهمية تشمل قطعان الغنم والبقر والماعز والخنازير ؛ فان سواحلها وافرة الغنى بما ينتجه صيد البحر من اسماك مختلفة الانواع يستهلك الاهلون في طعامهم الكثير منها ، ويصبر اغلبها ويوضع فى العلب للتصدير كالتن والسردين وما اشبهها ؛ ونشأت عن ذلك صناعة ذات بال .

السكان — لا نريد ان نخترق غياهب العصور ؛ حيث يختلط التاريخ بالخرافات وتندمج الحقائق فى الاساطير ؛ لكي نبحث عن سكان صقلية الاصليين ؛ وهل كانوا فى العصر الحجري من اقوام الشمال انحدروا نحو الجنوب ؛ او من اهل الجنوب صعدوا نحو الشمال ايام كانت اروبا وافريقيا قطعة واحدة ، وصقلية اداة وصل بينهما .

وان كان لي ان ابدي رأيا في الموضوع ؛ لا يعتمد الا على الحدس والتخمين فهو ان سكان المغاور والكهوف الذين عمروا صقلية انما صعدوا اليها من افريقيا ولم ينحدروا لها من اروبا ؛ ذلك ان مناخ صقلية اطيب ومراعيها اخصب ومياهها اوفر من افريقيا ؛ والانسان الاول فى فجر حياته كان يبحث عن كل ذلك ويسير نحوه حيثما وجده ؛ وعليه فسكان صقلية الاولون يكونون فرعا من اجداد البربر سكان الشمال الافريقي .

انما الذى اثبته التاريخ بصفة قطعية ، هو ان سكان صقلية في العهد التاريخي كانوا من قوم « الصيقول » وهم امة نشأت فى بلاد البلقان ما بين مقدونيا وبلاد الاغريق ؛ ثم استوطنوا ايطاليا ومنها عبروا الجزيرة التي اشتقت يومئذ اسمها من اسمهم (صيقول ـ صقلية) فابتلعوا من سبقهم بها من الشعوب الاخرى .

ثم امت الجزيرة جموع وافرة العدد من جزيرة اقريطش ، واخيرا هاجر اليها قوم غفير العدد من الاغريق ، فعمروها وهذبوا حواشيها ، ومدنوهـا على غـرار مدنيتهم اللامعة الزاهية ، وكانت يومئذ نبراس العالم المنير ؛ فابتلعوا فى بوتقتهم كل العناصر الاخـرى ؛ ولم يبق بالجزيرة الا الاغريقي الاصيل او الاغريقي الصيقولي الاصل .

اشتعلت نيران الحرب البونيقية بين روما وقرطاجنة فـوق اديـم الارض الصقلية فاحتلت الجزيرة بالرومانيين والقرطاجنيين وبالتابعين وتابع التابعين لـكل من الفريقين من عبيد وجند مرتـزق شمل اخلاطـا من شعوب البربر والقوط والوندال .

ثم ان الفتح الاسلامي قد طبع البلاد بطابعه الخاص ؛ فترك بها من سلالات العرب والبربر مالايمحى اثره او تنعدم شمائله كما ترك اهل الشمال النرمانيون اثارهم كذلك بينة واضحة كما تركها من بعدهم الجرمانيون الذين اسسوا دولة شواب هنالك .

فالعنصر الصقلي اليوم مزيج من شعوب الشرق بين يونـان و كنعانيين وعرب وبربر ؛ ومن لاتينيين وجرمانيين . و لا تزال بالجزيرة جماعـة لا شك فى اصلهـا الكـنعاني تتكلم لسانها العربي المحرف من غرار اهل مالطـة ولاتزال تحتفظ على طقوس من دينها الوثني القديم .

ولقد انتج اختلاط هذه العناصر وتساكنها بله وتنازعها البقاء ثم تشكل بقاياها

في صفة امة قوما اقوياء البنية ،صار القامة نيحفى الاجسام لا يزيد معدل الطول فيهم عن ميتر و٦١ فى السواحل وميتر و٥٠ في داخل البلاد .

ولقد تغنى بعض الشعراء بجمال المراة الصقلية كما ضربت بجمال المرأة الاسبانية الامثال . انما كلتا المراتين لا تقيمر بشيء عن المرأة المتوسطة الاعرابية ببلادنا .

وليس للرجل الصقلي ما يميزه كثيراً عن الرجل الاسباني ، بل انك في اغلب الجهات تكاد تجده اسبانيا خالص السحنة : اعين سوداء لماعة وبشرة سمراء قاتمة ؛ وانف اقنى وخدود غائرة فهو بلا شك اقل جمالا من العربي الصميم .

وفى كثير من الجهات تجد الشعر الكستنائي والعيون الشهل وتجد احيانا على قلة الشعر الاشقر والاعين الزرقاء وذلك فى الاوساط المترية الراقية ؛ مما يدل دلالة واضحة على انهم من بقايا النرمان والجرمانيين .

والصقلي بصفة عامة متوسط الذكاء ؛ ويكون ذكاؤه احياناً دون المتوسط وهو غير ميال العلم ولا لفن ؛ وتغلب الامية على البلاد بصفة مدهشة ؛ فهنالك تجد الخرافات موطنا خصبا والاعتقاد في القوى الطبيعية ومفعول السحر عظيم؛ والعادات الوثنية قد تركت هنالك اثراً لم تستطع محوه يد الاسلام ولا يد النصرانية .

المجتمع : سكان صقلية اليوم يبلغون نحواً من اربعة ملايين نسمة يتكلمون نوعاً من اللغة الطليانية المحرفة ليست بذات رقة ولا جمال ويعيش الناس هنالك منقسمين الى طبقات اجتماعية منفصل بعضها عن بعض ولم تستطع ايدى الاصلاح القليلة ان تغير من ذلك شيئا محسوسا فالسواد الاعظم من الناس يعيش هنالك مع السلطة الطليانية مهضوم الحقوق مهيض الجناح فاقداً كل وسائل الحياة الشريفة .

هنالك طبقة مستعمرة غنية ؛ تملك الارض وما عليها، تسرف في الترف وتنعم

بلذائذ الحياة وتتمتع بسكنى القصور الفخمة والحدائق الغناء ؛ وترتاد الاندية الفاخرة ؛ ثم هي تدير مزارعها الشاسعة مصدر ثروتها ومنبع غناها بواسطة نظار ماجورين ؛ وعملة فلاحين لهم عليهم اغلب الحقوق التي كانت للامراء الاقطاعيين في القرون الوسطى ؛ وكانت هذه الطبقة قبل النظام الفاشيستي واثناءه ؛ ولاتزال من سوء الحظ الى يومنا هذا تؤلف كتلة قوية تخضع لارادتها رجال الحكومة ونواب الامة وشيوخها ايام الحكم البرلماني ؛ وكثيراً مامد هؤلاء الطغاة ايديهم لعبيدهم ؛ وساعدوهم على القيام بسافل المآرب مقابل المساعدة التي يلقونها منهم لتنفيذ غايتهم من مقاومة الحكومة ان ارادت اصلاحاً لا يرضونه ؛ و من التعرض لنزع ملكية الارض لفائدة صندوق الدولة ان تراكمت الضرائب عليهم؛ وغير ذلك مما يطول ذكره .

ولقد شكل حثالة الصقليين جمعية سرية أسموها « لامافيا » انتشرت في انحاء البلادونشرت شرورها وآثامها ؛ ولطخت بالدماء البريئة ارجاءها ؛ خدمة لمآرب سافلة وترضية لمطامع نفسية دنيئة .

وتحت هذه الطائفة في السلم الاجتماعي ؛ توجد طبقة المدبرين والمحصلين والسماسرة الذين يباشرون الامور وساطة بين كبار المستعمرين والعملة .

واخيراً في اسفل الدرجات ؛ تجد طبقة العمال الفلاحين و هي تكاد تكون من طبقة الرقيق ؛ لا يرى الرائي لها مثيلا لا في روسيا قبل ثورتها الشيوعية اوفي بعض جهات الشمال الافريقي .

فالطبقات العاملة ، ليست لها مساكن صحية ، ولا تتقاضى من الاجر الا ما لا يكاد يسد الرمق ؛ وليس لها من اللباس الا ما يكفي لتمييزها عن بهية الحيوان ثم تراها بعد ذلك ترزح تحت وطأة الضرائب العامة التي تصيب المواد الاولية الضرورية لحياة الانسان ؛ فالصقلي افقر انسان في دعوية ايطاليا لكنه يتحمل اربعه

اضعاف ما يتحمله الطليانى من الاعباء ؛ ثم هو لجهله وقلة ادراكه ؛ يطيع السادة الاقطاعيين طاعة عمياء ؛ يأتمر طوعاً باوامرهم وينتهي بنواهيهم ؛ كأنه يعتقد دينيا ؛ بان الله خلقه من اجل خدمتهم .

اما طبقة العمال في المناجم والمعادن ، وبقية الصناعات الاخرى ؛ فقد تمكنت بفضل اجتماعها وتغلغل الافكار الاشتراكية فيها ؛ من تغير حالها والاحراز على بعض الحقوق ؛ ولقد جنحت في بعض الاحايين لفكرة الشيوعية ؛ الى ان ضربتها الفاشستية فسوت بينها وبين بقية العمال في ايطاليا تحت لواء طغيانها . واستمر انين العمال خافتا ؛ الى ان افلت شمس الفاشستية ؛ وهاجمت قوات الحلفاء من انكليز واميركيين ارض الجزيرة فلم يحرك اهلها ساكنا ؛ بل تقبلوا الفاتحين بصدور رحبة ملت الحرب ؛ وقلوب مبتهجة سئمت الجور والطغيان ؛ وكأنهم قالوا ان ليس في الامكان اسوأ مما كان ؛ فمرحبا بالقادم الجديد ؛ عله يصلح ما افسده الاقدمون .